

الشهير عبر الله اللاوتي (+ 1844 م)

في اللاذقية السورية لا زال بعض الناس، لا سيما من المسنين، يردّد أبياتاً من قصيدة بالعامية المحليّة. دونك بعضها مما شاع:

"الله أكبر. حيّ على الصلاة. حيّ على الفلاح.

كنت خوري وكان لي بالسحر قدّاس

كنت إحمل جسد سيدي واندار بين الناس

لما دخل برأسي عسكر الوسواس خالفت قولك سيدي

وأصبحت خلف الناس

الله أكبر. حيّ على الصلاة. حيّ على الفلاح.

يا نفسي كوني حزينة وابكي بكا الزلاّت

وتأسفي يا نفسي على الله مضى وفات

يا نفسي كوني حزينة وابكي بكا المحزون على اللي بدل ثوب

الصبايا بالجواهر المكنون

الله أكبر. حيّ على الصلاة. حيّ على الفلاح.

يا نفسي كوني شريرة وأشرّ الناس

وادفني ذاتك بين الأنجاس

موطنك هناك بعد ما بدلت جواهر الأديان

بجهنّم النار"



الأيام محت الدقائق في مَنْ يكون صاحب هذه القصيدة وماذا جرى له حتى صار إلى الحالة التي بلغها. غير أن ثمة مَنْ استطلع ما بقي في ذاكرة العديدين واهتدى إلى معلومات ومعطيات جعلت الصورة في شأن الكاهن المشار إليه في القصيدة أجلي. هذا كان الأب الأرشمندريت أرسانيوس حانونيك. وقد دفعها إليّ، أنا الأرشمندريت توما بيطار، خلال شهر تموز من السنة 1990. وها نحن ننشرها للمنفعة.



أسماء عديدة وردت ممّن كانوا يعرفون شيئاً من قصة الشهيد عبد الله. كل هؤلاء من أبناء الرعيّة الأرثوذكسيّة في اللاذقية. من الأسماء حنا خوري إيلان ابن المرحوم الخوري إيلان، دانيال خوري، المنقّدم في الكهنة عبد الله الياس، توفيق عوض، حبيب ياخور، جورج ميسي، عزيزة كبّاس، جبرائيل مرطيشو، رزق الله طنبور، جبرائيل رشو، أم جاد بيطار، مجيدة صابور، الأب الراهب أنطون منصور، جبرائيل شرشر وهاني شرشر.

وإلى ما بقي في ذاكرة بعض المؤمنين، عندنا ما ورد في

كتاب "آثار الحقب في لاذقية العرب" للياس صالح، نقلاً عن المخطوط البطريركي الأنطاكي الرقم 438 ونسخة من القصيدة الكاملة التي كان الشهيد عبد الله يُردّها. هذه أُخذت عن مخطوط موجود في دير صيدنايا البطريركي. وما كان يُغنى في اللاذقية، ما أوردناه أعلاه، هو نسخة مقتضبة محرّقة عن قصيدة صيدنايا. هذه منظومة على الحروف الأبجدية، وقوامها ثمانية وخمسون بيتاً.

لملحة المعلومات التي بين أيدينا وجمّع قطعها إلى بعضها البعض يبرز صورة الشهيد عبد الله على النحو التقريبي التالي:

اتفق في زمن أسقفية أرتامبوس على اللاذقية، سنة 1844م، أن شهر الخوري عبد الله، أحد كهنة الروم الأرثوذكس في المدينة، إسلامه. سبب ذلك أنه كان في اللاذقية وكيل لقتل دولة اليونان اسمه ديمتري. هذا كان متأهلاً في بلاده. وقد جاء إلى اللاذقية وادّعى أن زوجته، في وطنه، ماتت وطلب الزواج من صبيّة لاذقية اسمها كاترين كانت ابنة الكاهن ميخائيل النحال. لم يعطه المطران أرتامبوس إذناً بذلك. قال له أن يأتي بشهادة من مطران مدينته تعلن صحّة وفاة زوجته. وحدث أن غاب المطران

عن المدينة لبعض الوقت. فما كان من ديمتري سوى أن أقنع الخوري عبد الله بإجراء خدمة زواجه من كاترين. لا ندري كيف اقتنع الخوري بالقيام بهذا العمل من دون إذن مطرانه. ربما أخذ ديمتري على عاتقه أمر تغطية الخوري لدى المطران لما له من دالة عليه. أنى يكن الأمر فقد أُجري الإكليل وأخذ ديمتري كاترين إلى خاصته. وما إن مضت أيام قليلة حتى حضر ابن ديمتري من زوجته الأولى ففوجئ بأن أباه تزوج لأن أمه كانت لا تزال على قيد الحياة. فلما عاد المطران من سفره وعلم بذلك أصدر حراماً شمل ديمتري وكاترين والخوري عبد الله وكل من يخالط، من المؤمنين، أحداً من الثلاثة أو يكلمه أو يقبله في بيته. فكان الخوري عبد الله يطوف على كل صغير وكبير في المدينة يسأله التوسط في أمره لدى المطران. فلم يلق غير الخيبة لأن الجميع كانوا يحولون وجوههم عنه ويرفضون أن يكلموه. استمر على ذلك أياماً حتى ضاقت به الدنيا ولم يعد يطيق احتمالاً. فمضى إلى مشايخ المسلمين وعرض أمامهم أن يُسلم، فقبلوه بالترحاب وأقاموا له احتفالاً. ثم بعد أيام من إسلامه طافوا به في المدينة، في أحد أيام الأحاد وكانوا جمعاً غفيراً، لأجل ختانتها، وهم يعزفون بالآلات الطرب ويضربون الطبول ويطلقون البنادق.

إلى هنا انتهت المعلومة الواردة بشأن الخوري عبد الله في كتاب "آثار الحقب...". وما بقي في وجدان بعض الناس، بعد ذلك، هو أنّ الخوري بعدما أسلم عاد فندم وحاول أن يرتد فلم يجد إلى ذلك سبيلاً. وكان كل يوم يقف أمام كاتدرائية مار جرجس ويقول: "يا كنيسة الربّ محبتك في القلب". ولشدة تأثره نظم قصيدة وأخذ يغنيها، وكان صاحب صوت جميل. فسمعه المسلمون ينشدها في مئذنة الجامع المغربي، فألقوه من أعلى الجامع فوق ومات. وقد أخذه المسيحيون ودفنوه في كنيسة مار سابا. وثمة من ينقل أنّ النور كان يُشاهد على قبره. كما يُنسب إليه شفاء عدّة أمراض كارتفاع الحرارة والحمى والصرع. يُذكر أنّ كنيسة مار سابا لم يعد لها وجود اليوم في اللاذقية لأنّ مدرسة ثانوية خاصة بالطائفة الأرثوذكسية بُنيت في المكان. كما نُقلت المدافن إلى مقبرة الفاروس.

أما القصيدة التي انحفظت منه على مرّ الأيام فهي التالية:

نشير القريس (الذي أسلم) ونرم على ما جرى له
(هكذا ورد في نسخة صيدنايا)



الألف

أبكي على اللي مضى وأننم على اللي فات
وتذكّر الموت ومين هو اللي مات

إلى متى تتّضي يا مدّة الزلّات
يا نفسي إبكي ونوحى واتركي اللذات



الباء

وَإِعْطِي دَمُوعِي لِيَوْمِ الْآخِرَةِ رَعْبُونَ
بَدَّلْتُ بِنَقْلِ الصَّدْيِ الْجَوْهَرِ الْمَكْنُونِ

بِاللَّهِ اَتْرَكُونِي أَبْكِي بُكَاءَ الْمَحْزُونِ وَالْمَدْيُونِ
وَإِنْ أَنْصَفَ الدَّهْرُ قَوْلَ لِقَلْبِ يَا مَحْزُونِ



التاء

يَا شَيْبَةَ طَيْرًا وَقَعَ وَاصْطَادَتْهُ الْأَشْرَاكُ
وَالْفَخُّ مَنْصُوبٌ إِيَّاكَ الْوَقُوعُ، إِيَّاكَ

تَهَاوَنْتَ يَا قَلْبُ مِينُ هُوَ اللَّيِّ رَمَاكَ
يَا مَنْ يَرِيدُ الْخَلَاصَ قُومُ وَانْتَبَهُ يَا ذَاكَ



الثاء

وَمَا حَدَا جَرَى لَوْ قَبْلَ مَا جَرَى لِي
مِنْ بَعْدِ شِدَّتِي مَفَاتِيحَ الْفَرَجِ تَأْتِي

ثِ تَرَى أَجْدُ مَغْفِرَةً لَهْفَاتِي
أَنَا رَأَيْتُ مَنَامَاتٍ عَجِيبَاتٍ



الجيم

مِنْ ارْتِكَابِي لِلْمَعَاصِي فِي خَفَا وَإِعْلَانِ
وَإِغْفَرُ ذُنُوبِي أَنَا الْمَسْكِينِ يَا رَحْمَنُ

جَارُ عَلِيٍّ الزَّمَانُ وَحَطَّلِي مَنَامَاتُ
يَا رَبِّ إِغْفِرْ وَسَامِحْ كُلَّ ذَنْبٍ كَانَ



الحاء

وَضَاعُ مَنِي الصَّبْرِ وَضَاقَتْ خَلَاقِي
حَلُّ الْعَتَبِ ضَهْرِي مِنْ كَثْرَةِ وَسَاقِي

حَدِيثٌ عَنْ دَرَجَةِ عَهْدِي وَمِيثَاقِي
مَنْ بَعْدَ مَا كُنْتُ أَنَا فِي جُمْلَةِ رِفَاقِي



الخاء

وَرَدَّنِي لِلصَّوَابِ، وَقَلْتُ: عَادَانِي
مَنْ نَقَصَ رَأْيِي كُدَشْتِ الْأَرْضِ بِأَسْنَانِي

خَالَفْتُ عَدُوِّي حِينَ نَهَانِي
لَمَنْ تَبِعَتْ هَوَايَ رَاحَ وَخَلَّانِي

الدال 

و غابَ عني شعاعُ الشمسِ في ليالي
لا حيلةَ في أحكامِ الله لا حيلةَ

دارتُ عليّ الدَوَائِرُ شينُه _____
من بعدُ اعتدالي قوالي ملتُ هالميلةَ

الذال 

ولا تعبُ وشقي وداري مثلُ ما داريتُ
هني ضوتُ مصابيحُن وأنا اللي عِدمتُ الزيتُ

زلتُ ما حدا زلُ مثلُ ما زلتُ
رفاقي جاهدُوا وأنا الشقي تخلّيتُ

الراء 

خالفتُ ربي لُ قال: هالفعلُ فعالُ إبليسُ

ربي خلقتُ لأعبده بالسبح والتقدسُ
طاوَعْتُ ظني اللي حكمَ عليّ بالتعكيسُ

الزاي 

كمثلُ مين يلاقي عدوُّ بالحروبُ صنديدُ
يفرحُ ويبتأشرُ مثلُ أهلُ الفرخُ لو تبأشروا بالعيدُ

زيادةُ العمرُ عندُ المستقرُ جديدُ
يا من يصومُ ويصلي ويكثرُ التعديدُ

السين 

بعدما كانتُ ليالي الفرخُ عيدي
كيف وبأي وجهِ النقي بسيدي

سلاسلُ الحزنُ _____ لتقيدي
يا كثيرُ همي وبلواتي وتتهيدي

الشين 

ونصحوني أهلي وقرابيني بأوتادي
أخزيتني بين قرابيني وحسادي

شمتُ فيني عدوي وجميعُ حسادي
بعدُ ما كنتُ مثلُ الطير بالوادي

الصاد 

لَمَنْ وَقِعَتْ وَتُرَبَّطَتْ بِحِبَالِي
عَسَى بَدَعُوتِكَ يَرْحَمَنِي وَيُرَثِي لِي

صِرْتُ الْيَوْمَ أَبْكَى عَلَى حَالِي
يَا مَنْ يُصُومُ وَيُصَلِّي بِلِسَانِكَ تَدْعَا لِي

الضاد 

يَا مَنْ نَزَلَ الْحَبَائِسُ بَعْدَ عِزِّ وَشَانِ
دَعَّ عَنْكَ هَالْحَكِي وَعِنْدَكَ تَعْيِيرِي بَانَ

ضَيِّعْتُ مِقْلَتِي يَا دَهْرُ يَا خَوَّانُ
وَإِنْ كَانَ حَدَثُوكَ عَنِّي شَيْءٌ كَانَ

الطاء 

وَحَقَّقَ الدَّهْرُ إِنُّو قَدْ عَبَّرَ عَصْرِي
لَكِنْتُ قَلِيتُ خَلِّي هَالْقَضَى يَسْرِي

طَلَبْتُ حَتَّى اسْتَقَامَ سَعْدُ نَصْرِي
آخ، آخ لَوْ كُونُ مَيَّرْتُ فِي فِكْرِي

الظاء 

وَحَطَّ قَلْبِي بِحَسْرَاتِهِ وَغَرَزَاتِهِ
وَإِنْ امْتَلَأَ الدَّهْرُ لَا تَأْمَنُ لَغَدْرَاتِهِ

ظُ ضَيْقٌ عَلَيَّ الدَّهْرُ وَأَطْعَمَنِي مَرَارَاتِهِ
قُولُوا لِمَنْ اسْتَقَى الدُّنْيَا مَرَارَاتِهِ

العين 

وَيُخَسِّبُوا فَعَالِي مِنْ قَلَّةِ إِيْمَانِي
غَلَبَ عَلَيَّ عَدُوِّي وَهَدَّهَذَا أَرْكَانِي

عِدَايَ عَادُونِي وَكَتَرُوا أَحْزَانِي
بَنَيْتُ وَعَلَيْتُ فَمَا حَدَا نَهَانِي

الغين 

وَضَاعَ مَنِّي الصَّبْرُ وَضَاقَتْ الْخُلُقُ
لَكِنْ كَسِبَهَا اللَّيِّ عَبْرَ مِنْ بَابٍ وَخَرَجَ مِنْ طَاقٍ

غَمَرْتُ عَلَيَّ الْوَسَاقُ
صَاحِيحٌ مَا لَذَّةُ الدُّنْيَا إِلَّا مِنْ الْأَشْوَاقُ

الفاء 

وَأَنْفَذْتَنِي مِنَ الْجَنَّةِ إِلَى النَّيْرَانِ

فَعَالِي وَرَثْتُ عَلَّةَ الْهَجْرَانِ

عَاوِدْ حَزِينٌ وَأُنْسِي لِدَّةَ الْغَفْرَانِ

وَطَيْبُ لَحْنِي يُزِيلُ عَنْ قَلْبِي الْحَزِينَ الْيَاسُ
تَرَكْتُ مَسِيحِيَّتِي وَصِرْتُ خَلْفَ كُلِّ النَّاسِ

وَكُنْتُ إِخْدُمُ شِعَامِ الْجَوْهَرِ الْمَكْنُونِ
ظَنُونِي سَامِحَ لِعَبْدِكَ يَا إِلَهِي ظَنُونِ

وَيَتَحَمَّلُ مِنَ الْأَحْمَالِ تَقْلٌ مَا يَكْفِيهِ
كَيْفَ وَبَأْيِ وَجْهِ تَلَاقِيهِ وَتَوَافِيهِ

وَكَانَ مِنْ سَيِّدُو يَتْرَجَّى حَنَائِيَاتُو
أَرْضَى الْإِلَهَ وَبَانَتْ أَلْوُ عِلَامَاتُو

بَعْدَمَا كُنْتُ تَجُؤَا لَعْنَدِي تَهْنُؤِي
عَسَى اللَّهُ بِدَعْوَتِكَ يَرْحَمَنِي وَيَرِثَنِي لِي

لَمَنْ وَقَعْتُ وَتَرَبَّطْتُ بِحِبَالِي
عَسَى اللَّهُ بِدَعْوَتِكَ يَرْحَمَنِي وَيَرِثَنِي لِي

كَيْفُ حَالِي مِنْ بَعْدِ الْبِقْظَةِ وَالسَّهْرَانِ

القاف 

قَدْ كُنْتُ خُورِي وَكَانَ لِي بِالسَّحَرِ قَدَّاسُ
لَمَنْ دَخَلَ فِي رَأْسِي عَسْكَرُ الْوَسْوَاسِ

الكاف 

كُنْتُ إِسْتَهِي حَلْتِي لِأَمْعَةٍ بِالنُّورِ
زَلَّيْتُ رَبِّي يَا رَبِّي فَبِكَ الْعَسِيرُ يَهُونُ

اللام 

لَوْ أَنُو قَلْبِي طَاوَعَنِي تَقْلٌ مَا فِيهِ
يَا قَلْبُ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَسْلِيهِ

الميم 

مِثْلُ اللَّيِّ دَفَنُ الْوَزَنَاتِ فِي ذَاتُو
إِلَّا اللَّيِّ رِبْحُ بِالْمِكْيَالِ وَزَنَاتُو

النون 

نُوحُوا عَلَيَّ يَا جَمِيعَ أَهْلِي وَعَزُونِي
يَا قَسُوسَ النَّصَارَى الْكُلِّ ادْعُولِي

الهاء 

هَذَا اللَّيِّ حَبَانِي مَنْ سُوءَ أَفْعَالِي
يَا مَنْ يُصُومُ وَيُصَلِّي بِسَأْلِكَ نِدْعَالِي



الواو

إِلَّا ذُنُوبَ السُّوءِ قَدْ ضَيَّعْتُ عَهْدِي
كَيْفَ الْعَمَلِ وَصَدِيقِي صَارَ ضِدِّي

وَالصَّحِيحُ بِالصَّدَقِ مَا كَانَ مِنْ يَدِّي
يَا نَفْسُ إِبْكَي بُكَائِي وَمَا بَقِيَ تَهْدِي



لام - ألف

عَلَى الْخَلَائِقِ بِمِيزَانُو وَبِبرهَانُو
مَاذَا جَوَابِي أَنَا اللَّيِّ ضَيَّعْتُ إِحْسَانُو

لَا بُدَّ مَا يَتَجَلَّى الْحَقُّ سِبْحَانُو
يَنْصُبُ اللَّهُ يَوْمَ الْحَشْرِ مِيزَانُو



الياء

وَأَقْرَعِي بَابُو بِاللَّيْلِ إِذَا نَمْتُ
رَبِّكَ رَحْمٌ يَرُدُّكَ لِلْمَوْضِعِ الْكِنْتُ

يَا نَفْسُ قَوْمِي اشْتَرِي الـ مَوْضِعَ الـ بَعْتُ
إِذَا اعْتَرَفْتَ بِذُنُوبِكَ تَخَلَّصْتُ

أعدّ النص: عائلة الثالوث القدوس

أعدّ الصورة: هاكيا بفييتش

